واصف أبو الشباب : صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية المعاصرة .
دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ٢٩٠ صفحة .

يقسم الكاتب دراسته هذه، التي كانت في الأصل أطروحة دكتوراه قدمت لجامعة القاهرة تحت اشراف الدكتور عبد المحسن طه بدر، الى تمهيد وبابين . ففي التمهيد يقدم تعريفا عاما للمدرسة الرومانسية وللمدرسة الواقعية في القصة، وذلك باعتباره الأدب الفلسطيني منحصرا في اطارهما، كما يقدم عرضا سريعا لصورة الفلسطيني في انتاج الكتاب الفلسطينيين قبل ١٩٤٨ . أما البابان الآخران اللذان يشكلان محور الدراسة، فيتناولان الأعمال التي تدخل ضمن هذا التعريف ويحملان العنوان : النمط الرومانسي والنمط الواقعي . وفي نهاية دراسته يضيف الكاتب فصلا قصيرا عن الأعمال التي ظهرت بعد أوكتوبر ١٩٧٣، ثم يرفق بكتابه قائمة بالمراجع التي اعتمد عليها وفهرسا عاما للقصة والرواية الفلسطينية .

في معرض كلامه عن القصة والرواية الفلسطينية قبل ١٩٤٨، يتوقف الكاتب عند مذكرات دجاجة لاسحق موسى الحسيني وفي السرير لمحمد العدناني . ففي الأولى يرى تجسيدا لشخصية المثقف الفلسطيني التي "تميل الى الاستسلام والتصوف والخنوع مع أن الواقع الذي مرّ به الشعب الفلسطيني كان يستدعي المواجهة والدفاع عن النفس" (ص ٢٩)، أما الثانية فيراها مفتقرة "الى التطور والنمو والديناميكية، يغلب عليها طابع الهيكل الجاهز، المغلف بطبقة ضبابية كثيفة" (ص ٤٢) .

وعند انتقاله الى باب النمط الرومانسي، يقسمه الكاتب الى فصلين : فصل الصورة الدعائية وفصل الصورة الرومانسية . في الفصل الأول يقدم أربعة نماذج للشخصية الفلسطينية : اثنتين سلبيتين واثنتين ايجابيتين وكلها غير واقعية . يتفرد في رسم الشخصية السلبية كل من محمود عباسي في كتابه الهزيع الأخير

ورشاد أبو شاور في روايته البكاء على صدر الحبيب، فأما عباسي فلأنه يعنى، حسب ادعائه، بربط "صورة الفلسطيني بصورة الاسرائيلي ثم الاشارة، ولو بطرف خفي، الى تفوق الاسرائيلي على الفلسطيني" (ص٤٥)، وأما أبو شاور فلأنه يتخذ موقفا سلبيا مشككا من حركة المقاومة . وبالمقابل يقدم الكاتب عملين آخرين وهما عروس خلف النهر لسلوى البنا، وسنوات العذاب لهارون هاشم رشيد، وفي كليهما يظهر الفلسطيني بملامح أسطورية بعيدة عن الواقع .

وينهج الكاتب نفس النهج في الفصل الثاني خلال عرضه للصورة الرومانسية لشخصية الفلسطيني . فينتقل من قصص سميرة عزام الى قصص غسان كنفاني الأولى، والى قصص زكي درويش، ومحمد نفاع، ومحمد علي طه، وحنا ابراهيم، وجبرا ابراهيم جبرا، معتبرا اياها أعمالا "تحمل في طياتها الكثير من صفات الكاتب الرومانسي ومميزاته، ولكنها في نفس الوقت تحتفظ بشيء من الاستقلال الذاتي الذي ينبع من واقعها وتطورها ونموها" (ص ٧٤) . فمع أن هذه الأعمال لا تتسم بالدعائية، حسب استنتاجه، الا أن الشخصية الفلسطينية فيها "فقدت طابعها الخاص وأخذت طابع شخصية الكاتب، وأصبحت تنطق بلسانه وتعبر عن عواطفه وتجمح مع خياله" (ص ١٤٥) . والغريب أن الكاتب يدرج في هذا الباب حليم بركات في روايتيه ستة أيام وعودة الطائر الى البحر، معتبرا اياه كاتبا فلسطينيا "عاش معظم حياته بعد اللجوء في لبنان" (ص ١١١) . ومن المعروف أن حليم بركات لبناني ولد في الكفرون بسوريا سنة ١٩٣٣، ولا ندري كيف وقع الكاتب في هذا الخطأ وكيف لم ينتبه اليه اساتذته في جامعة القاهرة !

وبعد هذا العرض للنمط الرومانسي، يتحول الكاتب الى باب النمط الواقعي . وهنا أيضا يقسم البحث الى فصلين : فصل الصورة الواقعية الدعائية وفصل الصورة الواقعية . فيعود الى أبو شاور في كتابيه : ذكرى الأيام الماضية وأيام الحب والموت، كمثل للواقعية الدعائية (والآن في صالح المقاومة !)، ويضم اليه، كي لا يبقى وحيدا في الميدان، امتثال جويدي صاحبة شجرة الصبير، ثم يتفرغ الى الفصل الأخير من كتابه (ص ١٧٧ – ٢٦٠)، وهو الصورة الواقعية، فيكرسه لكاتبين فقط وهما : اميل حبيبي وغسان كنفاني .

لا شك أن الكاتب بذل جهدا لا يستهان به في تحليل الأعمال التي تعرض اليها، وخاصة في الباب الثاني من كتابه، ولكن منهج النقد الذي اتبعه أوقعه

في تناقضات خطيرة، فتقسيم الأدب الى نمطين والتركيز على الشخصية في كل من هذين النمطين مع التفريق بين الصورة الدعائية وغير الدعائية، أفقد الدراسة معالمها المميزة، فليست هي دراسة في الأسلوب كما يوحي هذا التقسيم، وليست هي دراسة في الشخصية على أبعادها المختلفة سواء في الأسلوب الرومانسي او الأسلوب الواقعي . فالكاتب ينتقل من عمل الى آخر وكل همه استخلاص النتائج التي تطابق التعريف الذي وضعه للشخصية في الفصل الموسوم به . وفي الواقع، يتراجع هذا التقسيم الأسلوبي ويتقلص تجاه الموقف المسبق الذي اتخذه الكاتب من الأعمال المدروسة، هذا بالاضافة الى أنه لم يحدد معالم الأسلوب الرومانسي او الأسلوب الواقعي في هذه الأعمال، ويكتفي باصدار الأحكام حول صورة الفلسطيني هل هي حقيقية ام لا .

يقول الكاتب في مقدمة كتابه : "يلمس دارس الأدب الفلسطيني الحديث والمعاصر ظاهرة تبعث على الدهشة هي ندرة الأبحاث والدراسات التي كتبت عن القصة والرواية" ، ــ وهذا صحيح الى حد ما . الا أن كتابه، رغم طموحه الى الشمول والعمق، لا يكاد يضيف شيئا جديدا على ما نشر من دراسات متفرقة في المجلات العربية منذ ١٩٦٧ حتى الآن .

وقد ألحق الكاتب بكتابه، كما أشرنا، فهرسا عاما للقصة والرواية الفلسطينية، اعتمد في انشائه على فهارس دور الكتب والجامعات في القاهرة وبيروت ودمشق وعمان، وكذلك على فهرس المطبوعات العربية في اسرائيل الذي أصدره البروفسور شموئيل موريه . وهنا أيضا يقع الكاتب في أخطاء نابعة من عدم الدقة والتمحيص . فهو مثلا يدرج بين الكتاب الفلسطينيين ابراهيم موسى ابراهيم، وسمير نقاش، وعزرا منشي عابد، وثلاثتهم من اليهود النازحين من العراق، كما أنه يدرج في فهرسه حيدر حيدر، وشوقي بغدادي، وفاضل السباعي، وثلاثتهم سوريون، هذا بالاضافة الى حليم بركات اللبناني !

وخلاصة القول، كتاب يفتقر الى منهج علمي واضح، وهو أيضا صادر عن رؤية سياسية ضيقة في نقد الأدب .

شمعون بـلاص